



لم نكن مبالغين حين قلنا قبل عقود عدة إن لسورية وظيفة في النظام العربي لا يمكن أن تؤديها دولة عربية أخرى. بالغ قليلاً بعض خبرائنا الأكاديميين والسياسيين حين اعتقدوا أن نهاية النظام العربي ستنتطلق من سوريا، أي من حيث انطلقت بداياته. بالغوا لأنهم تجاهلو حقيقة أن ظروف نشأة النظام تغيرت وكذلك اعتبارات أخرى دولية وإقليمية وداخلية أحاطت ببدايات النظام العربي. مع ذلك يصعب إنكار أو تجاهل حقيقة أن لسوريا تحديداً وحصراً مكانة العنصر الأشد تأثيراً في الواقعتين، أي نشأة النظام وإرهاصات النهاية. انظر حولي في أنحاء الإقليم العربي.

أرى فوضى سياسية في ليبيا وحرباً في اليمن وخريطة تتنزق في العراق وزوابع تهدد استقرار مصر وتوترات خلنجية تثير القلق وأجواء عنف تشتد سخونة في تونس والجزائر، أرى هذا كله، ولا أرى تكالباً وتدافعاً من الدول الكبرى والإقليمية - عربية وغير عربية - على أي واحدة من هذه الدول المأزومة، كالحشد الذي اجتمع على سوريا.

حشد يشارك أطرافه بالتخريب أو التدمير أو بالإبادة أو بالإرهاب أو بالبحث عن حلول، كلها في آن واحد وبحماسة نادرة. ببساطة يمكن القول إن موقع سوريا سبب كافٍ لتحظى بهذه المكانة الجوهرية في النظام العربي، ومكانة مماثلة في النظام الإقليمي حيث النشأة في الشرق الأوسط، بل وكما يظهر واضحاً لنا، الآن، مكانة الصدارة في جدول أعمال ومشاكل النظام الدولي.

مرة أخرى، ومنذ المرة الأولى عندما كانت مملكتا مصر والعراق تتنافسان على صياغة مستقبل لسوريا بعد الاستقلال، تكون جزءاً من هلال خصيب أم القلب لسوريا الكبرى أم كياناً مستقلاً تربطه بالمملكة المصرية والمملكة السعودية علاقات تعاون مرنّة.

لم تمض سوى سنوات قليلة إلا وسلبت سورية عقول ثم قلوب قادة ثورة الضباط في مصر. نعرف الآن أن هذا التطور في تلك المرحلة المبكرة جداً في نشأة النظام العربي كان بمثابة اللحظة التاريخية التي ألهمت السياسة الخارجية لمصر عبقرية قومية.

شهدت هذه اللحظة موقف الشعب السوري خلال حملة مصر ضد الأحلاف الأجنبية، وانتفاضاته تعزيزاً لحربها دفاعاً عن قناة السويس.

مرات عدة تجاوز فيها الطرفان المصري والسوسي المأثور في السياسة، وهي المرات التي تأكّد من خلالها – ويتأكد إلى يومنا هذا – نفوذ وتأثير سورية في التمهيد لإقامة تحالفات ثلاثة تضم مصر وال سعودية وفي التمهيد لفضها، ونفوذها ودورها في دفع مصر إلى اتخاذ قرارات تتجاوز قدرتها على التنفيذ مثل الحرب السياسية والإعلامية التي شنتها القاهرة ضد استعدادات تركيا لغزو سورية في مطلع العام 1957 بحجة منع وصول قيادات يسارية إلى مقاعد الحكم في دمشق. وهي القرارات التي أثمرت في النهاية إبرام الوحدة المصرية – السورية، وانفصالها بعد ثلاث سنوات.

مرة بعد مرة أثبتت دمشق أنها على رغم ضعف سورية المادي وهشاشة مؤسساتها السياسية وعفوية سلوكيات بعض قادتها فإنها تمتلك سلطة النقض المباشر حيناً وغير المباشر أحياناً داخل مسيرة النظام الإقليمي العربي.

لا جدال مثلاً في مسؤوليتها المباشرة عن دفع النظام العربي نحو حرب مع إسرائيل في العام 1967، ابتداء من موقف رئيس جمهوريتها في قمة الإسكندرية قبل الحرب بعامين وانتهاء بالضجة التي أثارتها حول فشلها في التصدي لحملات جوية من طيران إسرائيل، والحديث عن تعيبة عسكرية إسرائيلية على الحدود، تأكّد في ما بعد أنها لم تقع. وبالقطع أيضاً كان لسوريا نصيب معتبر في أسباب تحقيق نصر نسبي في حرب 1973، وكذلك في التطورات اللاحقة.

تغيرت أمور كثيرة منذ ذلك الحين. تغيرت خريطة توازنات القوة في النظام الدولي، وكذلك في النظام العربي وفي بيئته الإقليمية. ظهرت دمشق في معظم الصور خلال أزمة سورية الممتدّة غير دمشق في صور السنوات السابقة على الثورة. ظهرت عاصمة تحت الحصار منكهة منعزلة عن عالمها العربي ومحكوم عليها بأن لا تحلّ بأن تعود إلى سابق عهدها. فجأة تغيرت توازنات وسياسات دول جوار ودول كبرى وتدخلت روسيا فكان تدخلها مؤشراً على بداية حلقة جديدة، ليس فقط في مسلسل الأزمة ولكن أيضاً في مسيرة النظام العربي. فجأة اختفت سلوكيات الدولة الفاشلة.

تعود دمشق بها دائماً بؤرة جذب لكل القوى الفاعلة في النظام العربي وفي الشرق الأوسط، بل وفي العالم. عادت بقدرة متعددة إلى ممارسة فن إثارة نزاعات إقليمية، وتحطيم إقامة تحالفات سياسية وعقارية، تعود رصيدها ذا قيمة لأصدقائها، وخصوصاً عنيداً لأعدائها. عادت تتفاوض من موقع مختلف، عادت تمارس الابتزاز والتهديد، عادت تتآمر وتجدد تحالفات وتقوم أخرى، عادت تجرب ما كانت تجيد وهو التوظيف الأمثل لإمكانات كانت دائماً نادرة.

يصعب إنكار أن هذه الدولة «الفاشلة» كانت العنصر الأهم في كشف حدود القوة الحقيقية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ليس فقط في ما يتعلق بقرار التدخل العسكري المباشر أو القدرة على تشكيل تحالفات سياسية أو عسكرية أو حتى استخباراتية فاعلة. سورية بثورتها نجحت في ترجمة اجتهادات أكاديمية وتحليلات إعلامية عابرة عن الحدود الجديدة لقوة الدولة الأعظم إلى حقيقة لا تقبل الجدل.

من ناحية أخرى، يصعب تصور أن يكون نجاح أميركا، والمجتمع الدولي بصفة عامة، في التوصل إلى اتفاق نووي مع إيران قد تم بعيداً من توسيع النفوذ الإقليمي والدولي الذي تحقق لإيران نتيجة وجودها في سورية، وبالتالي في لبنان. إيران كانت

ولا تزال، موجودة في العراق، ونفوذها كان متتصاعداً في منطقة الخليج، لكنها لم تحقق هذا الاختراق في النظمتين الدوليين والعربي، إلا حين استضافتها الدولة السورية «الفاشلة»، بحسب التعبير المتدوال في الغرب في ذلك الوقت.

ليس سراً أو خافياً أننا كمحاللين سياسيين أو علماء سياسة عرب كنا دائماً حريصين على مراقبة السلوك الخارجي لتركيا، خصوصاً في ما يتعلق بجوارها العربي، وبسوريا تحديداً.

كانت تركيا، بالنسبة إلى المسؤولين عن أمن النظام العربي، السوط الذي يهدد به حلف الأطلسي الدول العربية إن حاولت تجاوز حدودها العقائدية والإقليمية. جاء وقت عادت فيه تركيا إلى اكتشاف القيمة المعنوية المضافة لعلاقات قوية مع دول النظام العربي انطلاقاً من سوريا.

وبالفعل انتشرت بعثاتها التجارية والعسكرية والdiplomatic في جميع الأتجاهات على رغم تحذيرات من أكاديميين عرب، بأن عرب اليوم وإن اختلفوا عن العرب الذين استقبلوا جحافل العثمانيين قبل قرون، إلا أنهم لن يتغافلوا عن مهمه وقف زحف التفود التركي. وهي المهمة التي لا يمكن تحقيقها إلا انطلاقاً من سوريا. أتصور أن سعي بعض القادة العرب إلى التحالف مع تركيا ضد سوريا أو باستخدام سوريا، سياسة لن تجلب للنظام العربي أو ما تبقى منه سوى مزيد من الاضطرابات والانفراط، وستجلب لتركيا مشاكل هي بالتأكيد في غنى عنها.

أتصور كذلك أن سعي إيران إلى اتخاذ سوريا مقرًا دائمًا لسياساتها الإقليمية سياسة غير موفقة لأنها تتجاهل حقائق سوريا عدة صعب أن تخفي أو تضعف على رغم وحشية وقسوة ما تعرضت له سوريا والسوريون، ومنها، أو على رأسها، قوة التنوع وتمسك السوريين به واقتلاعهم بأن عروبتهم تبقى السبيل الوحيد للخروج من المأزق الراهن والمأزق المتوقعة للنظام العربي ككل ولكل دولة على حدة.

تستطيع أطراف أجنبية وعربية أن تشعر بالرضا لما أصاب حكومة الأسد ونظامه من ضرر وانكسار، ولكنها لن تهأ طويلاً بهذا الرضا لأن كلفة البديل لا تزال أعلى. ربما كان جائزًا الاعتقاد في بداية الأزمة بأن رحيل الأسد مكسب مجرٍ وشرط ممكن. وقدناك كانت البديل متاحة، وإن نظرياً. أما الآن فهناك بالنسبة إلى مستقبل سوريا وتجارتها والنظام العربي ما هو أهل وأقل مخاطرة من هذا المكسب المجزي والشرط الممكن.

المسألة الأهم بالنسبة إلى السوريين ولنخب أمنية وسياسية عربية هي أن لا تنفرط سوريا أو تتبدل فلا نعرفها. أعرف مثلاً أن العقيدة العسكرية المصرية لا تكتمل إلا بسوريا كاملة غير منقوصة، كاملة بنسيجها وتجاربها وتاريخها السياسي. هي بالتأكيد قاصرة وعاجزة الآن بسبب السعي المكثف من جانب كل من إيران وتركيا إلى اختراقها وفرض الهيمنة عليها.

لا تزال الثورة السورية، وستبقى لفترة غير قصيرة، حبل بالمفاجآت. عشنا لنرى بفضلها فرنسا تنعم بلحظة زعامة دولية لتشكل حلفاً وتتولى قيادته، ولنرى تركيا تحصل على تجديد عهد من أوروبا للنظر في ضمها مقابل التحفظ على اللاجئين الفارين من سوريا، ولنرى روسيا مرة أخرى وقد عادت لتشبع نهماً عربياً أصيلاً ومتجدداً للوجود الأجنبي.

المصادر: